أصدقاء دائماً

مرثية بانشو الشجاع

بقلم : محمود رمضان حميده

رسوم : ماهر عبد القادر

دار الرشاد

تُبْهِجُني الأشْياءُ حينَ تَتَحَرَّكُ .

وَقَفْتُ ذاتَ يَوْمٍ أرْقُبُ حَرَكَةَ بَنْدُولِ السَّاعَةِ وَقَلْبِي يَتَأرْجَحُ مَعَهُ مُنْتَشِيًا ، وتَسَلَّلَ بانْشُو مِنْ خَلْفِي ، ثُمَّ وَثَبَ كَعادَتِهِ واضِعًا قَدَمَيْهِ الأماميَّتَيْنِ فَوْقَ ساقَيَّ ، وفَزِعْتُ بِشِدَّةٍ مِنْ أثَرِ المُفاجَأةِ ، وَسَيْطَرَ الغَضَبُ عَلَيَّ :

– بانْشُو ؛ أيُّها الأحْمَقُ ، ألَمْ أُحَذِّرْكَ مِرارًا مِنْ تِلْكَ الوَثَباتِ المُتَّسِمَةِ بالرُّعُونَةِ والخِفَّةِ ؟

وأحَسَّ بانْشُو بالحَرَجِ فَهَبَطَ بِجِسْمِهِ مُلامِسًا الأرْضَ ، زاحِفًا عَلى قَوائِمَ لا تَبِينُ حَتَّى أصْبَحَ فِي مُواجَهَتِي ، ثُمَّ اسْتَكانَ ذَلِيلاً ، وَشَعَرْتُ نَحْوَهُ بالشَّفَقَةِ ، وامْتَدَّتْ يَدي تَمْسَحُ فَوْقَ رَأسِهِ بِحَنانٍ جَعَلَهُ يَرْتَفِعُ ثانِيَةً لاعِقًا يَدَيَّ ، ثُمَّ أخَذَ يَهُزُّ ذَيْلَهُ مُمْتَنًّا .

– بانْشُو ؛ أنْتَ تُحَرِّكُ ذَيْلَكَ كالبَنْدُولِ تَعْبِيرًا عَنْ سَعادَتِكَ بِصُحْبَتِي ، أنا أيْضًا سَعِيدَةٌ بِصُحْبَتِكَ ، وإنْ كُنْتُ لا أُعَبِّرُ عَنْ ذَلِكَ بِحَرَكَةٍ بَنْدُولِيَّةٍ .

آهٍ لَوْ كانَ عِنْدي ألْفُ كَلْبٍ يُحِبُّنِي ، تَخَيَّلْ يابانْشُو ألْفَ ذَيْلٍ تَتَحَرَّكُ كالبَنْدُولِ فِي لَحْظَةٍ واحِدَةٍ مِنْ أجْلِي !

بانْشُو ؛ أتَذْكُرُ حِينَ زارَتْنِي لأوَّلِ مَرَّةٍ صَدِيقَتِي نَرْجِسُ ؟ يَوْمَها اقْتَرَبْتَ مِنْها ، وتَباعَدْتَ عَنْها ، ثُمَّ عَلا نُباحُكَ لَحَظاتٍ ،

وَجَعَلْتَ تَتَشَمَّمُ أَطْرافَ ثَوْبِها ، وتُلامِسُ بِأَنْفِكَ يَدَيْها وسَاقَيْها
وفي عَيْنَيْكَ نَظْرَةُ ارْتِيابٍ أَعْقَبَتْها نَظْرَةُ ارْتِياحٍ ، ولَمْ تَلْبَثْ أَنْ
هَزَزْتَ ذَيْلَكَ عالِيًا ، مُعْلِنًا تَرْحِيبَكَ بِها .
وتَعَجَّبْتَ تَرْجِسُ وهَمَسَتْ :
– يالَكَ مِنْ عابِثٍ ، تَنَبَّحُ وتَتَشَمَّمُ ، ثُمَّ تَهُزُّ ذَيْلَكَ مُرَحِّبًا !!

فَوْرًا دافَعْتُ عَنْ مَسْلَكِكَ :

- لَمْ يَكُنْ بانْشو عابثًا ، فَقَدِ اقْتَرَبَ مِنْكِ مُسْتَطْلِعًا ، وابْتَعَدَ عَنْكِ مُتَوَجِّسًا ، وَنَبَحَ غاضِبًا لِيَرَى كَيْفَ تَتَعامَلِينَ مَعَهُ ؟!

وَحِينَ رَآكِ مُسالِمَةً اقْتَرَبَ مُسْتَخْدِمًا أَنْفَهُ لِيَكْشِفَ بِهِ مَااسْتَعْصَى عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِكِ ، لَمْ يَكُنْ بانْشو يَشُمُّ ثِيابَكِ ولا عِطْرَكِ ، وإِنَّما كانَ يَغُوصُ بِأَعْماقِكِ دُونَ أَنْ تَدْرِي ، وَمِنْ رائِحَتِكِ الشَّخْصِيَّةِ صارَ يَعْرِفُ عَنْكِ الكَثِيرَ ، وَلَقَدْ أَعْرَبَ عَنْ سَعادَتِهِ بِمَعْرِفَتِكِ حِينَ هَزَّ ذَيْلَهُ عالِيًا ، وَسَوْفَ لا يَنْساكِ أَبَدًا بَعْدَ الآنَ .

* * *

كُنْتُ صَغِيرَةً ، وَلَمْ يَكُنْ عَقْلِي قَدِ اتَّسَعَتْ مَعارِفُهُ عَلَى هَذا النَّحْوِ عِنْدَما عَرَفْتُ بانْشو جَرْوًا صَغِيرًا يَعْوِي كُلَّما جاعَ .

سَأَلْتُ أُمِّي عِنْدَما رَأَيْتُهُ لأَوَّلِ مَرَّةٍ : لِماذا هُوَ حافِي الأَقْدامِ ؟

ضَحِكَتْ وقالَتْ : هَكَذا الكِلابُ دائِمًا .

قُلْتُ سَأَجْعَلُهُ يَرْتَدي حِذاءً لِيَكُونَ وَجيهًا بَيْنَ الكِلاب .

ولَمْ تَكُنِ المَسْأَلَةُ سَهْلَةً ؛ إِذْ كَيْفَ أَجِدُ حِذاءً مِنْ أَرْبَعِ فَرَداتٍ ؟ البَشَرُ لَمْ يَخْتَرِعُوا سِوَى أَحْذِيَةٍ مِنْ فَرْدَتَيْنِ لأَنْفُسِهِم .

مِنْ أَجْلِ بانْشُو أَحْضَرْتُ حِذائِي الأَحْمَرَ الجَديدَ ، وَوَضَعْتُهُ بِقَدَمَيْهِ الخَلْفِيَّتَيْنِ ، لَكِنَّهُ أَخْرَجَ قَدَمَيْهِ سَرِيعًا مِنْهُ ، ثُمَّ دَخَلَ فِي مَعْرَكَةٍ مَعَ إِحْدَى الفَرْدَتَيْنِ ، وَبَدا الأَمْرُ مُضْحِكًا فِي أَوَّلِه ، لَكِنَّهُ انْتَهَى بِخُسارَةٍ كَبيرَةٍ حِينَ تَمَزَّقَ الحِذاءُ الجَديدُ ، وَقَتْها دَمَعَتْ عَيْنايَ حُزْنًا ، وَمَعَ هَذا أَخْفَيْتُ دُمُوعِي عَنْ بانْشُو وسامَحْتُهُ .

وكَما فَشِلْتُ فِي إِقْناعِ بانْشُو بارْتِداءِ الحِذاءِ ، فَشِلْتُ أَيْضًا فِي جَعْلِهِ يَنْطِقُ باسْمِ سُلالَتِه لِيَعْرِفَ الجَميعُ مَدَى نُبْلِهِ وعَراقَةِ أَصْلِه :

- بانْشُو ؛ هَلْ تَعْرِفُ اسْمَ سُلالَتِكَ ؟

الـتَبِهْ ؛ إِنَّهُ (شـاوْ شـاوْ) ، هَيـا انْطِقْ بِه وأَسْمِعْنِي .

ويأْتِي صَوْتُ بانْشُو مُجَلْجِلاً لِيُثْبِتَ نُبوغَهُ : هَوْ .. هَوْ .

وأَحارُ فِي أَمْرِه : (شاوْ شاوْ) تَخْتَلِفُ كَثيرًا عَنْ هَوْ .. هَوْ .

وتَمْضِي الأَيـامُ ولا يَنْطِقُ بانْشُو أَبَدًا بِتِلْكَ الحُرُوفِ السَّهْلَةِ التِي أَرَدْتُ أَنْ أَرْفَعَ بِها قَدْرَهُ .

* * *

ليزا ؛ يا عَرُوستي الحَسْناءَ مَعْذِرَةً فَقَد انْشَغَلْتُ عَنْكِ قَليلاً بحَديث بانْشُو ، تَعْلَمينَ مقْدارَ حُبّي لَهُ وَشَغَفي به .

انْظُري هُناكَ في الرُّكْنِ القَصيِّ حَيْثُ نامَ بانْشُو مُتَوَسِّدًا يَدَيْه كَعادَته ، كَمْ هُوَ لَطيفُ المَظْهَر ، نَبيلُ الملامحِ حَتَّى خِلالَ نَوْمِه .

ليزا ؛ سَوْفَ نَتَسامَرُ اللَّيْلَةَ بِصَوْتٍ خَفيضٍ حَتَّى لا نُزْعِجَهُ .

أرَاكِ تَتَلَفَّتينَ حَوْلَكِ وفي عَيْنَيْكِ سُؤالٌ حائرٌ :

أيْنَ بانْشُو النائمُ ؟ أنا لا أرَاهُ !!

لَوْ قُلْتُ لَكِ إنَّـهُ قَد اسْتَيْقَظَ فَجْأةً وتَسَلَّلَ مِنَ الغُرْفَة فَلَنْ تُصَدِّقي لأنَّ البابَ مُغْلَقٌ ، وإنْ قُلْتُ : قَفَزَ مِنَ النَّافذَة فَسَوْفَ تَسْخَرينَ مِنِّي ، لأنَّ الكلابَ لا تَقْفزُ كَالقطَط مِنْ هَذا العُلُوِّ .

ماذا أقُولُ إذَنْ ؟ سَأُصارحُكِ بالحَقيقَة :

مُنْذُ زَمَنٍ غَيْرِ بَعيد لَمْ يَعُدْ بانْشُو يَنامُ بِرُكْنِه المُفَضَّلِ ، أمَّا أنا فَمازِلْتُ أرَاهُ بعَيْنِ الخَيال كُلَّ لَيْلَة بذات المكان .

أجَلْ ياليزا ، في الخَيال يَتَجَسَّدُ دائمًا بانْشُو العَزيزُ ، يُناجيني وأُناجيه ، إيَّاكِ أنْ تَظُنِّي أنِّـي حَمْقاءُ حينَ أُطيلُ الحَديثَ مَعَهُ وَقَدْ تَرَاءَى لي ، إنِّي فَقَطْ بهَمَساتي أُعَبِّرُ عَنْ حُبٍّ قَديم .

ليزا ؛ هَلْ تَغارينَ مِنْ حُبٍّ قَديمٍ يَتَجَدَّدُ ، أمْ تَتُوقينَ لِحُبٍّ مِثْلِه ؟

بِعَيْنَيْكِ احْتِجاجٌ صامتٌ : بانْشُو .. بانْشُو !

ماذا فعلَ ذلكَ الكلبُ المُدلَّلُ ليبلُغَ الغايةَ منْ محبَّتِكِ ؟

اسْمَعي أيـــتُها العَرُوسُ الطَّيِّـــبَةُ ما أقُولُ :

كَثيرًا ما تَملَّكَني الزَّهْوُ بامْتلاكي كَلْبًا رائعًا مثْلَ بانْشو ، فَانْطَلَقَ لِساني مُباهيًا بسَجاياهُ أمامَ صَديقاتي ، ولَمْ يَكُنْ ذَلكَ مُوافقًا لِهَوَى بَعْضِهِنَّ ، فَكُنَّ يَنْتَقِصْنَ منْ قَدْرِه عَنْ جَهْلٍ أوْ مُمازَحَة :

- لوْ كانَ شُجاعًا كَكلابِ الحِراسَةِ القَويَّة ، أوْ جَريئًا كَكلابِ الصَّيْدِ الرَّشيقَة ؛ لَكانَ لَكِ أنْ تُفاخِري بِه ، لكِنَّهُ جَبانٌ كَأرْنَب .

- إنَّـــهُ مُدَلَّلٌ ، لا يَصْلُحُ لِغَيْرِ الزِّينَة .

- يَهُزُّ ذَيْلَهُ لِلْجَميعِ ، لا فَرْقَ عِنْدَهُ بَيْنَ صَديقٍ وعَدُوٍّ .

تِلْكَ الكَلِماتُ الظَّالِمَةُ كانَتْ تُحْزِنُني وتُبْكيني .

فِي إِحْدَى اللَّيالِي وَضَعْتُ رَأْسِي فَوْقَ وِسادَتِي ، وَحَلَّقَتْ بِي أَفْكارِي ؛ يَجِبُ أَنْ يَتَحَوَّلَ بانْشُو إِلَى كَلْب مَرْهُوب الجانب ، هَزُّ الذَّيْلِ والوَثْبُ واللَّعْقُ كُلُّها أَعْمالٌ مُبْتَذَلَةٌ تَتَنافَى مَعَ الشَّراسَةِ وتَنْتَقِصُ مِنَ المَهابَةِ ، أُرِيدُ أَنْ ...

وغَلَبَنِي النَّوْمُ ، فَاسْتَغْرَقْتُ فِيهِ لأَرَى حُلْمًا عَجِيبًا :

بانْشُو وأَنا فِي الغابَةِ ، كُلُّ شَيْءٍ حَوْلَنا يَنْطِقُ بالجَمالِ والرَّوْعَةِ ؛ نُضْرَةٌ زاهِيَةٌ ، وتَأَلُّقٌ شَفَّافٌ ، وعِطْرٌ أَخَّاذٌ .

كُنَّا نُسابِقُ الغُزْلانَ ، ونَتَسَلَّقُ الأَشْجارَ لِنُمازِحَ القُرُودَ ، وَنَقْطِفَ الثِّمارَ ، نَضْحَكُ ونَصِيحُ ، ونُغَنِّي ونَطِيرُ ، والوَقْتُ يَمُرُّ بِنا ، مِنْ نَشْوَةٍ إِلَى حُبُورٍ ، وَمِنْ سَعادَةٍ إِلَى سُرُورٍ ، وَفَجْأَةً حَبَسَتِ الغابَةُ أَنْفاسَها أَمامَ مَشْهَدٍ مُخِيفٍ ؛ مِنْ بَيْنِ الأَدْغالِ بَرَزَ سَبُعٌ عَظِيمٌ ، ذَاكَ مَلِكُ الوُحُوشِ ، فَوْقَ هامَتِهِ شَعْرٌ كَثِيفٌ ، وَبِعَيْنَيْهِ لَهِيبٌ تَنْخَلِعُ لِمَرْآهُ القُلُوبُ ، أَمَّا الصَّوْتُ فَزَئِيرٌ كَقَصْفِ الرُّعُودِ .

هَزَّنِي خَوْفٌ عَمِيقٌ وَتَجَمَّدَتْ أَطْرافِي لأَبْقَى بِغَيْرِ حِرَاكٍ ، أَمَّا بانْشُو فَلَمْ يَعْرِفِ الخَوْفُ طَرِيقًا إِلَى قَلْبِهِ بَلْ كَشَّرَ عَنْ أَنْيابِهِ ، وتَحَفَّزَتْ عَضَلاتُ جَسَدِهِ النَّحِيلِ اسْتِعْدادًا لِصِراعٍ مَرِيرٍ ، وتَحَرَّكَتْ شَفَتايَ اليابِسَتانِ بِكَلِماتٍ يُمازِجُها أَمَلٌ ضَعِيفٌ :

– هيَّا يا بانْشُو ، أَرِنِي كَيْفَ يَتَلاقَى الأَنْدادُ .

واهْتَزَّت الغابَةُ ، ومَادَت الأرْضُ ، وتَمَزَّقَ السُّكُونُ بِصَرَخات هَائِلَة ، ثُمَّ وَقَعَت المُعْجِزَةُ ؛ السَّبْعُ مُمَدَّدٌ فَوْقَ الأرْضِ ، وَعُنُقُهُ تَحْتَ رَحْمَةِ أنْيابِ بانْشُو .

فِي صِرَاعِ الأقْوِياءِ يَضَعُ المَهْزُومُ عُنُقَهُ تَحْتَ أنْيابِ المُنْتَصِرِ عَلامَةَ خُضُوعٍ فَلا يَمَسُّهُ بَعْدَها أيُّ سُوءٍ .

وتَرَاجَعَ بانْشُو بِرَأسٍ مَرْفُوعٍ ، وانْتَهَى الحُلْمُ الجَمِيلُ .

فكَّرْتُ ؛ لابُدَّ أنْ يُصْبِحَ حُلْمي حَقيقَةً ، وبِسُرْعَةٍ اتَّخَذْتُ القَرارَ ؛ سَأقُودُ بانْشُو إلَى الغابَةِ ، وَهُناكَ نَلْتَقي أسَدًا كَالإعْصارِ ، وَكَما حَدَثَ في الحُلْمِ ؛ صِراعٌ وانْتِصارٌ ، ثُمَّ يَأتي العَفْوُ مَعَ المَقْدِرَةِ ، لِنَرْجِعَ ، وتَعْرِفَ كُلُّ صَديقاتي حَقيقَةَ بانْشُو .

حينَ تَسَلَّلْتُ مَعَ بانْشُو مِنَ المَنْزِلِ لَمْ أُخْبِرْ أحَدًا بِخُطَّتي ، سِرْنا مَسافاتٍ طَويلَةً ، أحْيانًا يَسْبِقُني بانْشُو فَأجْري خَلْفَهُ حَتَّى تَتَقَطَّعَ أنْفاسي ، وَأحْيانًا أسْبِقُهُ فَيَلْهَثُ وَرائي .

لَمْ أكُنْ أعْلَمُ أنَّ الغابَةَ بَعيدَةٌ إلَى هَذا الحَدِّ .

وَوَلَّى النَّهارُ ، ومَالَتِ الشَّمْسُ لِلْمَغيبِ ولا أثَرَ لِلْغابَةِ المَنْشُودَةِ .

عَضَّني الجُوعُ ، وَمَسَّني الخَوْفُ ، وَمَعَ هَذا مَازِلْتُ مُصِرَّةً عَلَى بُلوغِ الهَدَفِ .

أخيرًا أمْسَيْنا عَلَى أطْرافِ المَدينَةِ بِمَكانٍ مُوحِشٍ كَئيبٍ .

وَتُلِحُّ عَلَى عَقْلي أسْئِلَةٌ لَيْسَ لَها إجاباتٌ :

مَنْ يَدري أنِّي قَدْ سَلَكْتُ الطَّريقَ الصَّحيحَ ؟

كَيْفَ تَكُونُ الغابَةُ حينَ تَغْرَقُ في الظَّلامِ ؟

مَاذا لَوْ أنَّ بانْشُو لَمْ يَكُنِ المُنْتَصِرَ ؟

وأتَطَلَّعُ خَلْفي مُسْتَمِدَّةً مِنْ وُجُودِهِ الطُّمَأنِينَةَ والأمَانَ ، فَأرَاهُ يَقْضِمُ بِأسْنانِهِ بَعْضَ الحَشائِشِ مِنْ شِدَّةِ الجُوعِ .

ويَمُرُّ بنا غريبان لَهُما هَيْئَةٌ مُنَفِّرَةٌ ، فَأَتَوَجَّهُ إليْهما بالسُّؤال :

- أيْنَ أجدُ الغابَةَ أيُّها السَّيِّدان ؟

وبَيْنَهُما يَدُورُ هَمْسٌ خافتٌ تَلْتَقِطُهُ أُذُنايَ :

- أسَمِعْتَ ما تَقُولُ الصَّغيرَةُ ؟!

- تَسْأَلُ عَنِ الغابَة !

- كَلْبُها جَميلٌ ، لابُدَّ أنْ يَكُونَ غالِيَ الثَّمَن .

- دَعْكَ مِنَ الكَلْبِ وانْظُرْ لِعِقْدِها الثَّمين .

- غَنيمَةٌ بارِدَةٌ ولَنْ نُفْلِتَها .

وأدْرَكْتُ أنِّي أُواجِهُ لِصَّيْنِ مِنَ الأشْرار ، وفي الحالِ تَذَكَّرْتُ بانْشُو ، لَكِنَّني أيْضًا تَذَكَّرْتُ كُلَّ ماقالَتْهُ صَديقاتي عَنْهُ ، هُوَ حَقًّا مُجَرَّدُ كَلْبٍ لِلزِّينَة فَكَيْفَ يُواجِهُ الأخْطارَ ؟

كَمْ كُنْتُ واهِمَةً حينَ سِرْتُ وَراءَ الأحْلام .

تَقَدَّمَ مِنِّي أحَدُ اللِّصَّيْنِ ، فَتَراجَعْتُ إلَى الوَرَاء :

- لا تَخافي يا صَغيرَتي ، سَنَذْهَبُ مَعَكِ إلَى الغابَةِ لِنَحْمِيَكِ مِنَ الأخْطار ، هَيَّا ناوِلِيني عِقْدَكِ الجَميلَ .

- ذاكَ هَدِيَّةٌ مِنْ أبي لا أفَرِّطُ فيها أبَدًا .

- سَنَحْفَظُهُ لَكِ ، فَفي الغابَةِ قُرُودٌ ونَسانيسُ تَطْمَعُ في تِلْكَ الأشْياءِ الثَّمينَة .

- لا أُصَدِّقُ كَلامَكَ .
كانَ صَوْتي يَرْتَعِشُ ، وَخَلْقي يَجِفُّ ، وَقَلْبي تَتَسارَعُ دَقّاتُهُ .
تَلَفَّتُّ وَتَراجَعْتُ أَكْثَرَ إِلَى الوَرَاءِ ، وَصَاحَ اللِّصُّ الثّاني :
- إِلَى أَيْنَ ؟ سَنَأْخُذُ العِقْدَ رَضِيتِ أَمْ أَبَيْتِ .

كانَ بانْشُو قَدْ تَشَمَّمَ رِيحَ الغَرِيبَيْنِ فَارْتَفَعَ نُباحُهُ رَافِضًا لِوُجُودِهِما ، وهَمَسْتُ في رَجاءٍ أخيرٍ :

- بانْشُو ؛ هَلْ أعْتَمِدُ عَلَيْكَ الآنَ ؟

لا يَكْفِي أنْ تَنْبَحَ مِنْ بَعِيدٍ ، عَلَيْكَ أنْ تَهْجُمَ بِحَسارَةٍ .

وَتَعالَتْ ضَحِكاتٌ تُشْبِهُ صَوْتَ السُّعالِ ساخِرَةً مِمَّا أقُولُ ، وَظَلَّ بانْشُو عَلَى مَوْقِفِهِ المُتَخاذِلِ مُكْتَفِيًا بالنُّباحِ ، وَتَحاسَرَ أحَدُ اللِّصَّيْنِ فَوَجَّهَ إلَيْهِ رَكْلَةً قَوِيَّةً جَعَلَتْهُ يَعْوِي ألَمًا ، واجْتاحَنِي شُعُورٌ جارِفٌ بالغَضَبِ نَسِيتُ مَعَهُ مَشاعِرَ الخَوْفِ ، فَصَرَخْتُ مُهَدِّدَةً :

- أيُّها الشِّرِّيرانِ ؛ لَنْ أسْمَحَ لَكُما بإهانَةِ بانْشُو أوْ مُحاوَلَةِ إيذائِهِ ، وَلَسَوْفَ أدافِعُ عَنْهُ بِكُلِّ قُوَّتِي .

واندَفَعْتُ مُلَوِّحَةً بِقَبْضَتِي الصَّغِيرَةِ فِي وَجْهَيْهِما فَتَعَثَّرَتْ قَدَمِي وَوَقَعْتُ ، وانْتَهَزَ أحَدُهُما الفُرْصَةَ وانْحَنَى نَحْوِي مُحاوِلاً انْتِزاعَ العِقْدِ ، فَصَرَخْتُ مُسْتَنْجِدَةً .

الآنَ تَلاحَقَتِ الأحْداثُ بِصُورَةٍ مُخْتَلِفَةٍ لَمْ أكُنْ أتَوَقَّعُها :

أدْرَكَ بانْشُو أنَّ خَطَرًا حَقِيقِيًّا صارَ يَتَهَدَّدُنِي ، فَتَحَوَّلَ إلَى وَحْشٍ هائِجٍ ؛ قَفَزَ فَوْقَ اللِّصِّ المُهاجِمِ قَفْزَةً هائِلَةً ، وَشَرَعَ يَغْرِسُ أنْيابَهُ الحادَّةَ بأماكِنَ مُتَفَرِّقَةٍ مِنْ جَسَدِهِ ، وَتَعالَتْ صَرَخاتُ اللِّصِّ ألَمًا ورُعْبًا وَقَدْ سَقَطَ أرْضًا ، بَيْنَما بَادَرَ اللِّصُّ الثَّانِي إلَى حَجَرٍ ثَقِيلٍ

وأهْوَى بِهِ عَلَى رأْسِ بانْشُو فِي ضَرْبَةٍ قاسِيَةٍ جَعَلَتْنِي أرْتَعِدُ غَضَبًا :

- هَذا غَدْرٌ ومَسْلَكٌ جَبانٌ لا يَلِيقُ بِإنْسان .

تَرَنَّحَ بانْشُو قَلِيلاً مِنْ أثَرِ الضَّرْبَةِ المُؤْلِمَةِ ، ثُمَّ تَماسَكَ واسْتَدارَ مُهاجِمًا مِنْ جَدِيد ، كانَ يُواجِهُ عَدُوَّيْنِ أقْوَى مِنْهُ بِكَثِير ، ومَعَ هَذا بَدا عَنِيدًا لا يُقْهَرُ ، وأيْقَنْتُ أنَّ اللِّصَّيْنِ لَنْ يَسْتَطِيعا أمَامَهُ

صَبْرًا فَداخَلَني ارْتِياحٌ عَميقٌ ، وَعَجِبْتُ كَيْفَ يُخْفي بِأعْماقِه تِلْكَ القُوَّةَ والشَّجاعَةَ ثُمَّ لا يُظْهِرُ لي وَلِصَديقاتي غَيْرَ اللِّين والوَداعَة !!

أسْلَمَ أحَدُ اللِّصَّيْنِ ساقَيْه للرِّيح ، بَيْنَما تَكَوَّرَ الآخَرُ حَوْلَ نَفْسِه مُنْكَمِشًا فَوْقَ الأرْضِ طالِبًا الرَّحْمَةَ ، وحِينَ رَأى بانْشو عَجْزَهُ انْطَفَأتْ لَدَيْه رَغْبَةُ القِتال فَانْصَرَفَ عَنْهُ بِهُدُوءٍ بَيْنَما ذَيْلُهُ يَتَّجِهُ لأعْلى إعْلانًا بأنَّـهُ المُنْتَصِرُ .

انْحَنَيْتُ فَوْقَهُ بِزَهْوٍ عَظيمٍ ، وَضَمَمْتُهُ إلى صَدْري هامِسَةً :

– بانْشو ؛ رُبَّما لَم تُواتِكَ الفُرْصَةُ لِتُصارِعَ أسَدًا ، لَكِنَّكَ هَزَمْتَ شِرِّيرَيْنِ وأنْقَذْتَني مِنْهُما ؛ مِنَ الآنَ أنْتَ بانْشو الشُّجاعُ .

وانْتَبَهْتُ فَإذا ثِيابي قَدْ بَلَّلَتْها الدِّماءُ ؛ بانْشو يَنْزِفُ ، ماذا أفْعَلُ مِنْ أجْلِه ؟ وَتَلَفَّتُّ حَوْلي في حَيْرَة :

آخِرُ شُعاعٍ يَتَلاشَى ، والظَّلامُ يَتَكاثَفُ سَرِيعًا ، وَتَقْفِزُ إلى عَقْلي حَقيقَةٌ تَجْعَلُ تَيَّارًا مِنَ الخَوْفِ يَسْري بِجَسَدي ؛ لَقَدْ ضَلَلْتُ الطَّريقَ ، ولَمْ يَعُدْ بِمَقْدُوري أنْ أرْجِعَ إلى بَيْتي ، وَمَرَّةً أخْرَى أسْتَمِدُّ الأمانَ مِنْ بانْشو :

– أيُّـها الصَّديقُ الطَّيِّبُ ؛ كَمْ أنا بائِسَةٌ مُتْعَبَةٌ ؛ البَرْدُ والظَّلامُ والخَوْفُ والجُوعُ كُلُّها تَحالَفَتْ ضِدِّي ، أمَّا الضَّياعُ فَيُرْعِبُني ؛ أُريدُ أُمِّي وأبي وَعَرائِسي ، أُريدُ بَيْتِيَ الآمِنَ وفِراشي الدَّافِيءَ .

لماذا أنا هُنا وَحيدَةً يَفتَرِسُني الظَّلامُ والخَوْفُ بِأرْضٍ مُوحِشَةٍ ؟ بَكَيْتُ بِحُرْقَةٍ ، وَعَوَى بانْشو عُواءً حَادًّا .

– أتَدْري يا بانْشو مَعْنى أنْ تَبيتَ بلا بَيْتٍ وأهْلٍ وأصْدِقاءَ ؟

وفي الحالِ تَرَكَني بانْشو ، وجَرَى مُبْتَعِدًا لِيَبْتَلِعَهُ الظَّلامُ .

وَيَتَضاعَفُ شَقائي ، ويَمُرُّ الوَقْتُ لا أدْري مِقْدارَهُ قَبْلَ أنْ يَرْجِعَ بانْشو مِنْ جَوْفِ الظَّلامِ ، يالي مِنْ غَبِيَّةٍ ! لَقَدْ كانَ يَسْتَكْشِفُ الطَّريقَ مِنْ أجْلي ، وحِينَ هَرْوَلَ في اتِّجاهٍ مُعَيَّنٍ أسْرَعَتُ خَلْفَهُ تارِكَةً وَرائي مَشاعِرَ الوِحْدَةِ والضَّياعِ .

أنْستْني فَرْحَةُ العَوْدَةِ كُلَّ مَتاعِبي ، ارْتَمَيْتُ بَيْنَ أحْضانِ أمِّي وأبي باكِيَةً نادِمَةً ، سامَحاني وأسْبَغا عَلَيَّ عَطْفًا وحَنانًا بِغَيْرِ حُدُودٍ ، بَيْنَما انْزَوَى بانْشُو بِرُكْنِه المُفَضَّلِ مُتَوَسِّدًا ذِراعَيْه ، مُسْتَسْلِمًا لآلامِه ، وَحينَ عُرِضَ عَلَيْه الطَّعامُ بَدَا زاهِدًا فيه رَغْمَ جُوعِه الشَّديد ، واقْتَرَبْتُ مِنْهُ أحاوِلُ إطْعامَهُ بِنَفْسي فَهَزَّ ذَيْلَهُ مَرَّتَيْنِ وَنَظَرَ إلَيَّ نَظْرَةً تَنْطِقُ بالحُزْنِ ثُمَّ تَحَدَّرَتْ مِنْ عَيْنَيْه دَمْعَتان .

– بانْشُو ؛ أنا لا أحْتَمِلُ ذَلِكَ ، أنْتَ تَدْفَعُني للبُكاء .

وَأخَذَتْني أمِّي إلَى غُرْفَتي ، وأسْلَمَتْني للفِراش .

– أمِّي ؛ لَقَدْ نَزَفَ بانْشُو كَثيرًا ، هَلْ هُناكَ خَطَرٌ عَلَى حَياتِه ؟

– لا تَقْلَقي عَلَيْه فَسَوْفَ نَعْتَني بِجِراحِه ، وَقَريبًا يَسْتَرِدُّ عافِيَتَهُ .

وفي لَحَظاتٍ أغْمَضْتُ عَيْنَيَّ ورُحْتُ في سُباتٍ عَميق .

* * *

عَلَى غَيْرِ عادَتِي فِي النُّهوضِ مُبَكِّرًا تَأَخَّرْتُ فِي فِرَاشِي كَثِيرًا .
لابُدَّ أَنَّ بانْشُو قَد اسْتَرَدَّ عَافِيَتَهُ الآنَ ، وفِي مَرَحٍ ونَشاطٍ قَفَزْتُ مِنَ الفِراشِ ونَادَيْتُ بانْشُو لِيَعْلَمَ أَنِّي قَد اسْتَيْقَظْتُ ، وَحِينَ لَمْ يَأْتِ خَرَجْتُ مِنْ غُرْفَتِي قاصِدَةً إِيَّاهُ ، وَرَأَيْتُ مَكانَهُ خَالِيًا فَاطْمَأَنَّ قَلْبِي ، دائِمًا بانْشُو يَسْتَيْقِظُ قَبْلِي ، لَعَلَّهُ الآنَ بالشُّرْفَةِ مُسْتَمْتِعًا بِأَشِعَّةِ الشَّمْسِ .

- بانْشُو ؛ أَيْنَ أَنْتَ أَيُّها الماكِرُ ؟

وفِي عُيونِ مَنْ حَوْلِي لاحَظْتُ نَظَراتِ قَلَقَةٍ فَتَساءَلْتُ بِخَوْفٍ :

- هَلْ بانْشُو بِخَيْرٍ ؟ أُمِّي ؛ أَيْنَ ذَهَبَ بانْشُو ؟

وكانَ الرَّدُّ صَمْتًا ثَقِيلاً .

- أَبِي ؛ دُلَّنِي عَلَى مَكانِهِ ، أَرْجُوكَ .

وجاءَ الرَّدُّ كَلِماتٍ ، يالَها مِن كَلِماتٍ :

- ياصَغِيرَتِي ؛ كانَ بانْشُو بَطَلاً أَدَّى وَاجِبَهُ حَتَّى النِّهايَةِ ، رُبَّما نَفْتَقِدُهُ كَثِيرًا لأَنَّنا لَنْ نَراهُ بَعْدَ الآنَ ، لَكِنَّهُ سَيَظَلُّ داخِلَ قُلُوبِنا كما كانَ دائِماً .

- هَلْ ماتَ بانْشُو ؟
وانْسابَتِ الدُّمُوعُ بِغَيْرِ انْقِطاعٍ تُبَلِّلُ وَجْهِي وثِيابِي ، وَبِداخِلِي أحْسَسْتُ فَراغًا رَهِيبًا ، وبِأنِّـي فَقَدْتُ أشْياءً وأشْياءً كانَتْ تُقَوِّينِي وتَمْنَحُنِي سَلامًا وأمْنًـا .

تحرّكتُ منْ مكاني بلا هدف ، فإذا بي أسيرُ على ساقيْنِ منْ ورق ، وأخوضُ في غبْشةٍ وضبابٍ لمْ أعهدْهما في صباحٍ مرَّ بي قبْلَ هذا الصّباحِ .

وتتتابعُ الأيـــامُ ، لكنّها أبدًا لا تفرضُ على ذاكرتي النّسْيانَ .

- إيـــه يا بانْشو ؛ لقدْ أوْحشْتني كثيرًا أيـــتُها العفْريتُ ، عنْدي كما تعْلمُ أصْدقاءُ كثيرُونَ : ليزا بعيْنيْها الزّرْقاوَيْنِ كالبحْرِ ، ودبْدُوبُ بفرائه الأبْيضِ كالثّلْجِ ، وبطُوطةُ بمنْقارها الأحْمرِ كالياقوت ، وأرْنوبُ بأذُنيْه الطّويلتيْنِ كأُذُنَيْ حمارٍ ، وعنْدي كتْكُوتٌ يلْتقطُ الحبَّ ، وعُصْفُورٌ يُغرّدُ عنْدَ الفجْرِ ، ومعَ هذا مازلْتُ أتوقُ لصُحْبتكَ ، وأحنُّ لشقاوَتكَ ، ثُمَّ لا أجدُكَ إلاّ في خيالٍ عابرٍ .

بانْشو ؛ أرَضيتَ أنْ تكُونَ طيْفًا للأبَد ؟

أحقًّا آثرْتَ السّلامةَ ، وفرَرْتَ منْ مُواجهَةِ الأشْرارِ ؟

لا أُصدّقُ ؛ فأنْتَ أشْجعُ منْ أسدٍ ، وأجْرأُ منْ ذئْبٍ .

لمْ يُخبرْني أحدٌ بذلكَ ، بلْ عايَنْـــتُهُ بنفْسي .

وهلْ أنْسى ماحييتُ تلْكَ اللّحظاتِ الصّعْبـــةَ التي عشْناها معًا ؟

كمْ كُنْتَ رائعًا وأنْتَ تخُوضُ معْرَكةَ المَوْتِ منْ أجْلي !!

- ليزا ؛ أراكِ صامتةً واجمةً ، تُفكّرين .
لا بأسَ ، فكّري ما شئتِ في أمرٍ بانشو العجيب ،
ولكنْ لا تطلُبي منْ حديثي المزيدَ ، فالكلماتُ تُتوهُ منّي ومشاعري
تغلبني ، وأخشى أنْ تُبلّلَ دُموعي ثوبكِ الجميلَ .
* * *

تَقُومُ الكِلابُ عَلَى اخْتِلاف أنْواعها بأعْمالٍ جَليلَة خِدْمَةً للإنْسانِ في السِّلْمِ والحَرْبِ وأوْقاتِ الكَوارِثِ .

- اذْكُرْ بَعْضًا مِنْ تِلْكَ الأعْمال ، ثُمَّ حَدِّد الصِّفَةَ النَّادِرَةَ التي تَتَحلَّى بها الكِلابُ في عِلاقَتِها بالإنْسان .
- دَوِّنْ قائِمَةً بأسْماءِ الطُّيورِ والحَيَواناتِ التي يَسْعَدُ الإنْسانُ بِصُحْبَتِها .

* * *

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب المصرية
إدارة الشئون الفنية

حميده، محمود رمضان .
مرثية بانشو الشجاع / بقلم محمود رمضان حميده ؛
رسوم ماهر عبد القادر . ط١ . - القاهرة : دار الرشاد ، ٢٠١٠ .
٢٤ ص؛ ٢٣ x ٢٣ سم . - (أصدقاء دائما)
تدمك ٨- ١١٣ - ٢٦٤ - ٩٧٧- ٩٧٨.
١- قصص الأطفال .
أ- عبد القادر ، ماهر (رسام)
ب- العنوان ٨١٣,٠٢
ج - السلسلة .

الناشـــر : دار الرشاد
العنـــوان : ١٤شارع جواد حسني – القاهرة
تليفونـــس: ٢٣٩٢٤٦٠٥
بريد إلكتروني: Dar_alrashad @ hotmil.com
رقـم الإيداع : ٤٠٢٢ / ٢٠١٠
الطبـــع : عربية للطباعة والنشر
العنـــوان : ٧، ١٠ ش السلام – أرض اللواء- المهندسين
تليفـــون : ٣٣٢٥٦٠٩٨ - ٣٣٢٥١٠٤٣
إخراج الغلاف: للفنان عبلة الزهيرى
الطبعة الأولى: ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة